



الجزء الرابع من المجلد الثالث

ربيع الثاني سنة ١٣٢٦ موافق مايو (أيار) سنة ١٩٠٨

رسالة ابن المقفع في الصحابة

أما بعد أضح الله أمير المؤمنين وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع عليه المسألة والاستماع كما كان ولادة الشر يجمعون مع جهنهم العجب والاستغناء ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما ينطق له في الفحص عن أمورهم كما كان أولئك يكفون بالدعة ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر في الامتناع أن يجترئ عليهم أحد برأي أو خبر مع تسليط الديان. وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهنك عدوه وشفى غليله ومكن له في الأرض وآتاه منكه وخزانها من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفتيش والتأمل والإخلاد وأن يرضا من أوى بالمتاع به وقضاء حاجة النفسي منه وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره إياه وذلك من أبين علامات السعادة وأنجح الأعوان على الخير وقد قص الله عز وجل علينا من نبي يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه المنك وعنده من تأويل الأحاديث وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وأخوته أثنى على الله عز وجل بنعمته ثم سلا عما كان فيه وعرف أن الموت وما بعده هو أولى فقال: توفي مسلياً وألحقني بالصالحين.

وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على تناوله بالخبرة فيما ظن أنه لم يسبقه إياه غيره وبالتذكير بما قد انتهى إليه ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبراً ومذكراً. وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله. مع أن ما يزيد ذوي

الألباب نشاطاً إلى أعمال ذوي الرأي فيما يصح الله به الأمة من يومها أو غابر دهرها الذي أصبحوا قد طمعوا فيه ولعل ذلك أن يكون على يدي أمير المؤمنين فإن مع الطمع الجد ومع اليأس القنوط وقلنا ضعف الرجاء إلا ذهب الرجاء. وطلب المويس عجز وطلب الطامع حزم. ولم ندرك الناس نحن وآباؤنا إلا وهم يرون فيها خلاً لا يقطع الرأي ويمسك بالأفواه من حال وال لم يهتد الإصلاح أو أهمل ذلك ولم يثق فيه بفضل رأي أو كان ذا رأي ليس مع رأيه صون بصرامة أو حزم أو كان ذلك استشارة منه على الناس بنشب أو قلة تقدم لما يجتمع أو يقسم لو حال أعوان ينيل بهم الولاية ليسوا على الخير بأعوان وليس له إلى اقتلاعهم سبيل لمكانهم من الأمر ومخافة الدول والفساد إن هو هاجهم أو انتقص ما في أيديهم أو حال رعية متزدة ليس لها من أمرها النصف في نفسها فإن أخذت بالشدة حميت وإن أخذت باللين طغت. وكل هذه الخلائق قد طهر الله منها أمير المؤمنين فآتاه الله

ما آتاه في نيته ومقدرته وعزمه ثم لم يزل يرى ذلك من الناس حتى عرفه منه جهالهم فضلاً عن عنائهم. وصنع الله لأمر المؤمنين في رأيه وأتباعه مرضاته وأذل الله لأمر المؤمنين رعيته بما جمع له من الدين والعفو فإن لأن لأحد منهم ففي الأتخان له شهيد على أن ذلك ليس بضعف ولا مصانعة وإن اشتد على أحد منهم ففي العفو شهيد على أن ذلك ليس بعنف ولا خرق مع أمور سوى ذلك يكف عن ذكرها كراهة أن يكون كأننا نصبنا المدح. فبما أخلق هذه الأشياء أن تكون عتاداً لكل جسيم من الخير في الدنيا والآخرة واليوم والغد والخاصة والعامة. وما أرجأنا لأن يكون أمير المؤمنين بما أصلح الله الأمة من بعده أشد اهتماماً من بعض الولاة بما لا يصلح رعيته في سلطانه

وما أشد ما قد استبان لنا أمير المؤمنين أطول بأمر الأمة عناية ولها نظراً وتقديراً من الرجل منا بخاصة أهله ففي دون هذا ما يثبت الأمل وينشط العنل ولا قوة إلا بالله والله الحمد وعنى الله التمام.

فمن الأمور التي يذكر بها أمير المؤمنين أمتع الله به أمر هذا الجند من أهل خراسان فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام وفيهم منعة بما يتم فضلهم إن شاء الله. أما هم فأهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس وعفاف نفوس وفروج وكف عن الفساد وذل لنوالة فهذه حال لا نعتسها توجد عند أحد غيرهم. وأما ما يحتاجون فيه إلى المنعة من ذلك تقويم أيديهم ورأيهم وكلامهم فإن في ذلك اليوم اختلاطاً من رأسي مفرط غال وتابع متحير شال. ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه والراكب أشد وجلاً. فنو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيراً محيطاً بكل شيء يجب أن يقول فيه ويكفوا عنه بالغاً في الحجة قاصراً عن الغلو يحفظه رؤسائهم حتى يقود به دهاءهم ويتعهد به منهم من لا يؤبه له من عرض الناس لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً وعنى من سواهم حجة وعند الله عذراً. فإن كثيراً من المتكئين من قواد أمير المؤمنين اليوم إنما عامة كلامهم فيما يؤمر الأمر ويرغم الرغم أن أمير المؤمنين لو أمر الجبال أن تسير سارت ولو أمر أن تستدبر القبلة بالصلاة فعل ذلك وهذا كلام قلنا (يرتضيه) من كان مخالفاً وقلنا يرد في سمع السامع إلا أحدث في قلبه ريبة وشكاً.

والذي يقول أهل القصد من المسلمين هو أقوى للأمر وأعز للنسطن وأقنع للنخالف وأرضا للنوافق وأثبت للنعد عند الله عز وجل.

فإننا قد سمعنا فريقاً من الناس يقولون لا طاعة للمنخوق في معصية الخالق. بنوا قوطهم هذا بناءً معوجاً فقالوا إن أمرنا الإمام بمعصية الله فهو أهل أن يعصى وإن أمرنا الإمام بطاعة الله فهو أهل أن يطاع. فإذا كان الإمام يعصى في المعصية وكان غير الإمام يطاع في الطاعة فالإمام ومن سواه على حق الطاعة سواء. وهذا قول معنوم يجده السلطان ذريعة إلى الطاعة والذي فيه أمنيته لئلا يكون للناس نظائر ولا يقوم بأمرهم إمام ولا يكون على عدوهم منهم ثقل.

سمعنا آخرين يقولون بل نطيع الأئمة في كل أمورنا ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ولا يكون أحد منا عنيداً حسياً هم ولاية الأمر وأهل العلم ونحن الاتباع وعيننا الطاعة والتسليم. وليس هذا القول بأقل ضرراً من توهين السلطان وتجهين الطاعة من القول بالذي قبله لأنه ينتهي إلى القطيع المتفاحش من الأمر في استحلال معصية الله جهاراً صراحاً. وقال أهل الفضل والصواب: قد أصاب الذين قالوا: لا طاعة لمنخوق في معصية الخالق ولم يصيوا في تعطيلهم طاعة الأئمة وتسخيفهم إياها وأصاب الذين أقروا بطاعة الأئمة لما حققوا منها ولم يصيوا ما أجهلوا من ذلك في الأمور كنهها فأما إقرارنا فإنه لا يطاع الإمام في معصية الله فإنما ذلك في عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطاناً. ولو أن الإمام هي عن الصلاة والصيام والحج أو منع الحدود وأباح ما حرم الله لم يكن له في ذلك أمراً.

فأما إثباتنا للإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره فإن ذلك في الرأي والتدبير والأمر الذي جعل الله أزمته وعراة بأيدي الأئمة ليس لأحد فيه أمر ولا طاعة من الغزو والقتول والجمع والقسم والاستعمال والترك والحكم بالرأي فيما لم يكن فيه أثر

وإمضاء الحدود والأحكام على الكتاب والسنة ومحاربة العدو ومخادعته والأخذ
للمسلمين والإعطاء عليهم. وهذه الأمور وأشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة
وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام ومن عصى الإمام أو خذله فقد أوقع نفسه.
وليس يفترق هذان الأمران إلا ببرهان من الله عز وجل عظيم. وذلك أن الله جعل
قوام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خنتين الدين والعقل. ولم تكن عقولهم وإن
كانت نعمة الله عز وجل عظمت عليهم فيها بالغة معرفة الهدى ولا مبلغة أهنيها
رضوان الله إلا ما أكمل لهم من النعمة بالدين الذي شرع لهم وشرح به صدر من أراد
هداه منهم ثم لو أن الدين جاء من الله لم يغادر حرفاً من الأحكام والرأي والأمر وجميع
ما هو وارد على الناس وجاز فيهم مذ بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى يوم
ينقونه إلا جاء فيه بعزيمة لكانوا قد كفوا غير وسعهم فضيق عليهم في دينهم وآتاهم
ما لم تسع أسماعهم لاستناعه ولا قلوبهم لفهسه ولخارت عقولهم وألباهم التي امتن الله
بها عليهم ولكانت لغواً لا يحتاجون إليها في شيء ولا يعلمونها إلا في أمر قد آتاهم به
تزييل ولكن الله من عندهم بدينهم الذي لم يكن يسعه رأيهم كذا قال عباد الله المتقون:
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ثم جعل ما سوى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأي وجعل الرأي إلى ولادة الأمر ليس
لناس في ذلك الأمر شيء إلا الإشارة عند المشورة والإجابة عند الدعوة والنصيحة
بظهور الغيب. ولا يستحق الوالي هذه الطاعة إلا بإقامة العزائم والسنن مما هو معني في
معنى ذلك. ثم ليس من وجوه القول وحده يلتبس فيه ملتبس إثبات فضل أهل بيت
أمير المؤمنين على أهل بين (من سواه) وغير ذلك مما يحتاج الناس إلى ذكره ألا وهو

موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف مما هو أبغ مما يغلو به الغالون فإن الحجة ثابتة والأمر واضح بحمد الله ونعمته.

ومما ينظر فيه لصالح هذا الجند ألا يولي أحدا منهم شيئا من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة. ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم لأنهم أهل ذاك ودعوى بلاء وإذا خلا بالدرهم والدنانير اجتراً عليها وإذا وقع في الخيانة صار كل أمر مدخولاً بنصيحتهم وطاعته فإن حيل بينه وبين رفعت أمر ضده الحبية مع أن ولاية الخراج داعية إلى ذلة وعقوبة وهوان. وإنما منزلة المقاتل منزلة الكرامة والنفط. ومما ينظر فيه من أمرهم أن منهم من اجهولين من هو أفضل من بعض قاداتهم فنو التمسوا وصنعوا كانوا عدة وقوة وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونه من العامة.

ومن ذلك تعهد أدبهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصبة والمباينة لأهل الأهوى وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين وشكهم مثل الذي يأخذ به أمير المؤمنين في أمر نفسه. ولا يزال يطلع من أمير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقتته للإتراف والإسراف وأهلهما ومحبة القصد والتواضع ومن أخذ بهما حتى يعنوا أن معروف أمير المؤمنين محظور عن يكره بخلاً أن ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالات بالنساء والمراتب فإن أمير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهه المعروف والمؤاساة. ومن ذلك أمر أرزاقهم من يوقت لهم أمير المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له وأن يعنم عامتهم العذر الذي في ذلك من إقامة ديوانهم وتحمل أسمائهم ويعنوا الوقت الذي يأخذون فيه فينقطع الاستبطاء

والشكوى. فإن الكنيسة الواحدة تخرج من أحدهم في ذلك أهل أن تستعظم فإن باب ذلك جدير أن يحسم مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم وأن هذا الخراج إن يكن رائجاً لغلاء السعر فإنه لا بد من الكساد والكسروان وأن لكل شيء درة وغزارة وإنما درود خراج العراق بارتفاع الأسعار وإنما يحتاج الجند اليوم إلى ما يحتاجون إليه من كثرة الرزق لغلاء السعر فمن حسن التقدير إن شاء الله أن لا يدخل على الأرض ضرر ولا بيت المال نقصان من قبل الرحمن إلا دخل ذلك عليهم في أرزاقهم مع أنه ليس عليهم في ذلك نقصان لأنهم يشترون بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير. فأقول لو أن أمير المؤمنين ما خلا شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً ويجعل بعضه علفاً فأعطوه بأعيانهم فإن قومت لهم قينة فخرج ما خرج على حسابه قينة الطعام والعلف لم يكن في أرزاقهم لذلك نقصان عاجل يستكبرونه وكان ذلك. نزلهم لحمل العدو وإنصاف بيت المال من أنفسهم فيما يستبطنون مع أنه إن زاد السعر أخذوا بحصتهم من فضل ذلك. ومن جماع الأمر وقوامه بإذن الله أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبارهم وحالهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف وأن يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح فإن ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة فتصير جنة لنجهالة والكذب.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمتع الله به أمر هذين المصرين فإنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته ومعينيه مع اختلاطهم بأهل خراسان وأنهم منهم وهامتهم وإنما ينظر أمير المؤمنين منهم. صدق ولرباطتهم أو ما أراد من أمورهم معرفته

استثقال أهل خراسان ذلك لهم من أمر مع الذي في ذلك من جمال الأمر واختلاط
الناس بالناس العرب
بالعجم وأهل خراسان بالمصريين.

إن في أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد
يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبة مثله ولا مثل نصفه فنو أراد أمير
المؤمنين أن يكتفي بهم في جميع ما ينسب له أهل الطبقة من الناس رجونا أن يكون
ذلك فيهم موجوداً. وقد أزرى بأهل العراق في تلك الطبقة أن ولاية العراق فيها مضى
كانوا أشرا الولاية وأن أعوانهم من أهل أمصارهم (كذلك) فحصل جميع أهل العراق
عنى ما ظهر من أولئك الفسول وتعلق بذلك أعدائهم من أهل الشام فنعوه عنهم ثم
كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب مما
دنا منهم أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق
حيث ما وقعوا في صحابة خليفة أو ولاية عمل أو موضع أمانة أو موطن جهاد وكان
من رأي أهل الفضل أن يقصدوا حتى ينسوا فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا وينتفع بهم
وإن كان صاحب السلطان لم لم يعرف الناس قبل أن ينسوا ثم لم يزل يسأل عنهم من
يعرفهم ولم يستثبت في استقصائهم فزالت الأمور عن مراكزها ونزلت الرجال عن
منازلها لأن الناس لا ينقون إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام
غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً وأحلى السنة وأرق تنطقاً للوزراء أو تحلاً لأن
يخفى عنهم من وراء وراء. فإذا أثر الوالي أن يستخلص رجلاً واحداً ممن ليس لذلك
أهلاً دعا إلى نفسه جميع ذلك الشرح وطعنوا فيه واجترأوا عليه وتوردوه وزعموا عني

ما عنده وإذا رأى ذلك أهل الفضل كفوا عنه وباعدوا منه وكرهوا أن يروا في غير موضعهم أو يراجعوا غير نظرانهم.

ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ حد اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال فيستحل الدم والفروج بالحيرة وهما يحرمان بالكون. ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسنين في دمايتهم وحرمتهم يقضي به قضاء جائز أمرهم وحكمتهم مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد نَحَّ بهم العجب بما في أيديهم

يهم والاستخفاف من سواهم فأقبحهم ذلك في الأمور التي يشفع بها من سمعها من ذوي الألباب.

أما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة حتى يبيح ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة الأمر الذي يزعم أنه سنة وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة الهدى من بعده. وإذا قيل له أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون قالوا: فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء وإنما من يأخذ بالرأي فيبيح به الاعتزام عن رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسنين قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسنين ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه وهو مقر أنه رأى منه لا يحتج بكتاب ولا سنة. فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه القضية والسير

المختلفة فترفع إليه كتاب ويرفع معها ما يحتاج به كل قوم من سنة أو قياس ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيته الذي ينهيه الله ويعزم له عنده وينهى عن القضاء بخلافه وكتب بذلك كتاباً جامعاً عزماً لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً صواباً واحداً ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من إمام آخر، آخر الدهر إن شاء الله.

فأما اختلاف الأحكام إما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه يدبره قوم على وجه ويدبره آخرون على وجه آخر فينظر فيه إلى أحق الفريقين بالتصديق وأشبه الأمرين بالعدل. وأما رأي أجراه أهله على القياس فاختلف وانتشر ما يغلط في أصل المقايسة وابتدأ أمر على غير مثاله. وإما لطول ملازمته القياس فإن من أراد أن يلزم القياس ولا يفارقه أبداً في أمر الدين والحكم وقع في الورطات ومضى على الشبهات وغض على القبيح الذي يعرفه ويبصره فأبى أن يتركه كراهة ترك القياس. وإنما القياس دليل يستدل به على الخاسر فإذا كان ما يقود إليه حسناً معروفاً أخذ به وإذا قاد إلى القبيح المستنكر ترك لأن المبتغى ليس غير القياس يعني ولكن محاسن الأمور ومعروفها وما أحق الحق بأهله. ولو أن شيئاً مستقيماً على الناس ومنقاداً حيث قيد لكان الصدق هو ذلك أولى أن يعتبر بالمقاييس فإنه لو أرد أن يقوده الصدق لم ينقد إليه. وذلك أن رجلاً لو قال: أأمرني أن أصدق فلا أكذب كذبة أبداً لكان جوابه أن يقول نعم ثم لو التمس منه قود ذلك فقال: أتصدق في كذا وكذاب حتى يبلغ به أن يقول الصدق في

رجل هارب استدلى عليه طالب ليطننه فيقتنه لكسر عليه قياده وكان الرأي له أن يترك ذلك وينصرف إلى الجمع عليه المعروف المستحسن.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أهل الشام فإنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة. وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة ولا يطبع منهم في الاستجماع على المودة فمن الرأي في أمرهم أن يختص أمير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً أو يعرف منه نصيحة أو وفاء فإن أولئك لا يثبتون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى ويدخلوا فيما جملوا عنده من أمرهم فقد رأينا أشباه أولئك من أهل العراق الذين استدخلهم أهل الشام وليس أحد من أمر أهل السلم على القصاص حرموا كمن كانوا يحرمون الناس وجعل فيهم إلى غيرهم كمن كان فيء غيرهم إليهم ونحووا عن المنابر والجالس والأعمال كمن كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهنون فضله في السابقة والمواضع ومنعت منهم المرافق كمن كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يصنع أمراؤهم للنعامة. فإن رغب أمير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما أشبهها فلم يعارض ما عاب ولم يمثل ما سخط كان العدل أن يقتصر بهم على فيهم فيجعل ما خرج من كور الشام فضلاً عن النفقات وما خرج من مصر فضلاً عن حقوق أهل المدينة ومكة بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم أو يزيد وينقص غير أنه يأخذ أهل القوة والغناء وخفة المؤونة والعفة في الطاعة ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معلومة ويكون الديوان كالغرض المستأنف ويأمر لكل جند من أجناد أهل الشام بعدة من العيال يقتربون عندها ويسوي بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه فيمن مات من عيالا قم ولا يصنع بأحد من المسلمين.

وأما ما يتخوف المخوفون من نزواتهم فلنعبري لنس أخذوا بالحق ولم يؤاخذوا به أنهم
لخلقاء أن يكون لهم نزوات ونزقات ولكننا عنى مثل اليقين بحمد الله من أنهم لم
يشركوا بذلك إلا أنفسهم وأن الدائرة لأمر المؤمنين عندهم آخر الدهر إن شاء الله.
فإنه لم يخرج منك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو
سبب استئصالهم وتدميرهم.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر أصحابه فإن من أولى أمر الوالي منه بالتثيت والتحيز
أمر أصحابه الذين هم بهاء فتاة وزينة مجلسه وألسنة رعيته والأعوان عنى رأيه
ومواضع كرامته والخاصة من عامته فإن أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه
من الوزارة والكتاب قبل خلافة أمير المؤمنين عدلاً قيحاً مفراط القبح مفسداً للنحسب
والأدب والسياسة داعياً للأشرار طارداً للأخيار فصارت صحبة الخليفة أمراً مخيفاً
فقطع فيه الأوغاد وتزهد فيه من كان يرغب فيما دونه حتى إذا التقينا أبواب العباس
رحمه الله وكنت في ناس من صلحاء أهل البصرة ووجوههم فكنت في عصابة منهم
أبوا أن يأتوه فستهم من تغيب فلم يقدم ومنهم من هرب بعد قدومه اختياراً للنقصية
عنى سوء الموضع لا يعتذرون في ذلك إلا بضياح الكتب والدعوة والمدخل يقولون
هذه منزلة كان من هو أشرف من أبنائنا يرغبون فيها هو دونهما عند من هو أصغر
أمرائ ولاتنا اليوم وقد كانت مكرمة وحسباً إذ الناس ينظرون ويسأل عنهم فأما اليوم
ونحن نرى فلاناً وفلاناً ينفر بأسمائهم عنى غير قديم سنف ولا بلاء حدث فمن يرغب
فيها هاهنا يا أمير المؤمنين أكرمك الله أما يصير العدل كنه إلى تقوى الله عز وجل
وإنزال الأمور منازلها فإن الأول قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وقال:

هم سودوا نصراً وكل قبيلة ... يبين عن أحلامها من يسودها

وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيه مظالم. أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور من أهل مصر قد غبر علامة دهره صانعاً يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء إلا أنه مكنه من الأمر صاع فاحتوى حيث أحب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار وقيل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب ويجري عليهم من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيره من سروات قريش ويخرج له من المعونة على نحو ذلك لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ولا فقه في دين ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ولا غناء حديث ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ولا عدة يستعد

بها وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الذين لا يقوم إلا به حتى كتب كيف شاء ودخل حيث شاء.

وأما المظنة التي دخلت في ذلك فعظيمة قد خصت قريشاً وعنت كثيراً من الناس وأدخلت على الأحساب والمروءات محنة شديدة وضيقاً كثيراً فإن في أذن الخليفة والمداخل عليه واخنس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكماً عظيماً على أن الناس في أنسابهم وأخطارهم وبلاء

أهل البلاء منهم وليس ذلك كخواص المعروف ولطيف المنازل أو الأعمال التي يختص بها المولى من أحب ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضي فيه للناس من أهل السوابق والمآثر من أهل الباقيين وأهل البلاء والغناء بالعدل أو بما يحال فيه عنهم فإن أحق المظالم بتعجيل الرفع والتغيير ما كان ضرره غائباً وكان السلطان شائناً ثم لم يكن في رفعة مؤونة ولا شغب ولا توغير بصدور عامة ولا لنفوة ولا أضرار سبب.

ولصحابة أمير المؤمنين أكرمه الله منزلة وفضل وهي مكرمة سنية حربية أن تكون شرفاً لأنها وحسباً لأعقابهم وحقيقة أن تصان وتخطر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال ومن رجل له عند أمير المؤمنين خاصة بقراءة أو بلاء أو رجل يكون شرفه ورأيه وعنده أهلاً يجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته أو صاحب نجدة يعرف بها ويستعد لها يجمع مع نجده حسباً وعفافاً فيرفع من الجند إلى الصحابة ورجل فقيه مصلح يوضع بين أظهر الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه أو رجل شريف لا يفسد نفسه أو غيرها فإما من يتوسل بالشفاعات فإنه يكتفي أو يكتفى له بالمعروف والبر فينا لا يهجن رأياً ولا يزيل أمراً عن مرتبته ثم تكون تلك الصحابة المخصصة عنى منازلها ومداخلها ألا يكون للكتاب فيها أمر في رفع رزق ولا وضعه ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخير.

ومما يذكر به أكبر المؤمنين أمر فتيان أهل بيته وبني أبيه وبني عني وبني العباس فإن فيهم رجالاً لو متعوا بحسام الأمور والأعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لأخرى. ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر الأرض والخراج فإن أجسم ذلك وأعظمه خطراً وأشدّه مؤونة وأقربه من الضياع ما بين سهله وجبله ليس لها تفسير عنى الرساتيق والقرى

فليس للعنّال أمر ينتبهون إليه ولا يحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعدما يتأنقون لها في العنّارة ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم. فسيرة العنّال فيهم إحدى اثنتين إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتبع الرجال والرسابق بالمغالاة من وجد، وإما رجل صاحب مساحة يستخرج من ذرع ويترك من لم يزرع فيعبر من عمر ويسلم من أحرب مع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبوت ولا علم وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مراراً فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض فنو أن أمير المؤمنين أعمل رأيي في التوظيف على الرسابق والقرى والأرضين وظائف معنومة وتدوين الدواوين بذلك وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وحسنها ولا يجتهد في عنّارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية وعنّارة للأرض وحسم لأبواب الحيانة وغشم العنّال. وإذا رأى مؤمنته شديدة ورجالها قليل ونفعه متأخر. وليس بعد هذا من أمر الخراج غلا رأى قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ولم نره من أحد قبله من تخير العنّال وتفقدتهم والاستعانة لهم والاستبدال بهم.

ومما نذكر به أمير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمنامة وما سوى ذلك أن يكون من رأى أمير المؤمنين إذا ساحت نفسه عن أموالها من الصدقات وغيرها أن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكنية الحسنة التي قد رزق الله أمير المؤمنين وأكرمهم بها من الرأي الذي هو بإذن الله جمى ونظام لهذه الأمور كنها في الأمصار والأجناد والثغور والكور. إن الناس من الاستخراج والفساد ما قد علم أمير المؤمنين وبهم حاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما

هو أشد من حاجتهم إلى أقواهم التي يعيشون بها وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ويصرون الخطأ ويعطلون عن الجهل ويمنعون عن البدع ويحذرون الفتن وينتقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ثم يستصحبون ذلك ويعالجون على ما استكروا منه بالرأي والرفق والنصح ويرفعون ما أعياهم إلى ما يرجون قوته عليهم مأمونين على سير ذلك وتحصينه بصراء بالرأي حين يبدو أو أطباء باستصاليه قبل أن يتمكن. وفي كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة إذا صنعوا لذلك وتلطف لهم وأعينوا على رأيهم وقروا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويسلطهم له. وخطر هذا جسيم في أمرين أحدهما برجوع أهل الفساد إلى الصلاح وأهل الفرقة إلى الألفة والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرك في أمر من أمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه ولا يهتس هاتس إلا وأذن شفيقة تصيح نحوه. وإذا كان ذلك لم يقدر أهل الفساد على تريبص الأمور وتلقيحها وإذا لم تلقح كان نتائجها بإذن الله مأمونا.

وقد علمنا علماً لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصنع من قبل أنفسها ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها. وأن خاصة قط لم تصنع من قبل أنفسها وإنما لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها. وذلك لأن عدد الناس في ضعفهم وجهالهم الذين لا يستغنون برأي أنفسهم ولا يحسنون العلم ولا يتقدمون في الأمور فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ينظرون عليهم ويسمعون منهم اهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليه بجد ونصح ومثابرة وقوة جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم وسبباً لأهل الصلاح من خواصهم وزيادة فيما أنعم الله به عليهم وبلاغاً إلى الخير كله. وحاجة

الخواص إلى الإمام الذي يصنحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك
 فبالإمام يجمع الله أمرهم ويكتب أهل الطعن عليهم ويجمع رأيهم وكنسهم ويبين لهم
 عند العامة منزلتهم ويجعل لهم الحجة والأيد والمقال على من نكب عن سبيل حقهم.
 فلما رأينا هذه الأمور ينتظم بعضها ببعض وعرفنا من أمر أمير المؤمنين ما بمشده جمع الله
 خواص المسلمين على الرغبة في حسن المعاونة والمؤازرة والسعي في صلاح عامتهم
 طبعنا لهم في ذلك يا أمير المؤمنين وطبعنا فيه لعامتهم ورجونا أن لا يعمل بهذا الأمر
 أحد إلا رزقه الله المتابعة فيه والقوة عليه. فإن الأمر إذا أعان على نفسه جعل للنقاتل
 مقالاً وهياً للنساعي نجاحاً. ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو رب الخلق وولي الأمر
 يقضي في أمورهم يدبر أمره بقدرة عزيزة وعلم سابق فنسأله أن يعزم لأمر المؤمنين
 على المراشد ويحصنه بالحفظ والثبات والسلام ونلذ الحمد والشكر.

تحسيد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة والآلاء الظاهرة الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه ولا
 يدفع قضاؤه ولا أمره وإنما يقول إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. والحمد لله
 الذي خلق الخلق بعينه ودبر الأمور بحكمه وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه
 بقدرة منه عليها ومنكة منه لها لا معقب لحكمه ولا شريك له في شيء من الأمور يخلق
 ما يشاء ويختار ما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم سبحانه الله وتعالى عما
 يشركون. والحمد لله الذي جعل صفوا ما اختار من الأمور دينه الذي ارتضى لنفسه
 ولما أراد كرامته من عباده فقام به ملائكته المقربون يعظمون جلاله ويقدسون أسمائه
 ويذكرون ويذكرون آلاءه لا يتحسرون عن عبادته ولا يستكبرون يسبحون الليل

والنهار لا يفترون وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه يطيعون أمره
ويذبون عن محارمه ويصدقون بوعده ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوه
وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقهم قوتهم وإفلاحهم وحجتهم وإعزازة دينهم وإظهار
حقهم وتمكينهم لهم وكان لعدوه وعدوهم عندما أوعدهم من خزينة وإحلاله بأسهم
وانتقامه منهم وغضبه عليهم مضى على ذلك ونفذ فيهم قضاؤه فيما مضى وهو مضى
ومنفذه على ذلك فيما بقي لئلا يتركه ولو كره الكافرون ليحق الحق ويبطل الباطل
ولو كره الجاحدون. والحمد لله الذي لا يقضي في الأمور ولا يدبرها غيره ابتدأها بعينه
وأماها بقدرته وهو وليها ومتهاها وولي الخبرة فيها والإمضاء لما أحب أن يمضي
منها يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون. والحمد
لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ذي المن والطول والقدرة والحول الذي لا تمسك لما
فتح لأوليائه من رحمته ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته ولا رد لأمره في ذلك
وقضائه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. والحمد لله المنيب بحمده ومنه ابتدأه والمنعم
بشكره وعينه جزاؤه والمثني بالإيمان وهو عطاؤه.

كتب ابن المقفع إلى صديق ولدت له جارية:

بارك الله لكن في الابنة المستفادة وجعلها لكم زينة وأجرى لكم بها خيراً فلا تكرهها
فإنه الأمهات والأخوات والعينات والحالات ومنهن الباقيات الصالحات. ورب غلام
ساء أهله بعد مسرقم ورب جارية فرحت أهلها بعد مساء قم.

تعزية لابن المقفع عن ولد:

أعظم الله على المصيبة أجرك وأحسن على جليل الرزء ثوابك وعجل لك الخلف فيه
وذخر لك الثواب عنده.
وله:

وإنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه فلا تجعن إلى ما فجعت به من ولدك
الفجعة بالأجر عنده والعرض منه. فإنما أعظم المصيتين عنك وأنكى المرزيتين لك.
أخلف الله عنك بخير وذخر لك جزيل الثواب.
وتعزية له عن بنت:

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك بما رزئته وعوضاً من المصيبة به ورزقت من
الثواب عنده أضعاف ما رزأك به منها فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه
ودوام تلك.
وتعزية له أيضاً:

أعظم الله أجرك في كل مصيبة وأوزعك الشكر على كل نعمة. اعرف الله حقه
واعصم بما أمر به من الصبر تظفر بما وعد من عظيم الأجر.
وتعزية لابن المقفع:

أما بعد فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله هو يدبرهما ويقضي فيهما ما يشاء ولا راد
لقضائه ولا معقب لحكمه فإن الله خلق الخلق بقدرته ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة
لئلا يطمع أحد من خلقه في خلد الدنيا ووقت لكل شيء ميقات أجل لا يستأخرون
عنه ساعة ولا يستقدمون فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت لا يرجو بأن
يخلصه من ذلك أحد. نسأل الله خير المنقلب. وبنغني وفاة فلان فكانت وفاته من

المصائب العظام التي يحسب ثوابها من ربنا الذي إليه منقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا
فعلينا بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمة
وجعلهم من المهتدين.

ولابن المقفع في السلامة:

أما بعد فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك وفي الذي
ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة نحمد الله عليها ولها المنعم الفضل اخشود ونسأله
أن ينهنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها. وسألت أن أكتب إليك
بخبرنا ونحن على حال لو أظنبت في ذكرها لم يكن في ذلك إحصاء للنعمة ولا اعتراف
لكنه الحق فرغب إلى الذي تزداد نعمة علينا في كل يوم وليلة تظاهراً ألا يجعل شكرنا
منقوصاً ولا مدخولاً وأن يرزقنا مع كل نعمة كفاءها من المعرفة بفضله فيها والعمل في
الأداء إليه حقها إنه ولي قدير.

وله كتاب للثقي في السلامة:

أما بعد فإن مما تمخى الله به مناقبك الكريمة اخشودة العانية عن القول والوصف أنك
موضع المؤونات عن أخوانك جمال عنهم أثقال الأمور مما وضعت عند المؤونة ارتفاعك
عن الأمور التي يطأطأ إليها الكلام على السنة الناس إذا أباحوه وبمجره وضيعوا
القول ونسوا القصد فيه وأخذوا به في كل فن وأصفوا بصفوته غير أهلها فيما لا
ينبغي لهم من التشبيه والتوفير والتفصيل. كان من خبري بعدك أي قدمت بلد كذا
فتها لي بعض ما شخصت له واخشود على ذلك الله عز وجل وأنا على أن يأتيني
خبرك محتاج فأما جملة خبري في فراقك فقلبي مكة كل ما سواك حرام فيها.

وله جواب في السلامة:

أما بعد فقد أتاني كتاب الأمير رجعة كتابي إليه فكان فيه تصديق الظن وتثبيت الرأي ودراك البغية والله محمود فأمّتع الله بالأمر وأمتعه بصالح ما آتاه وزاهده من الخيرات مستعبراً له فيه مستعبداً بطاعته التي بها يفوز الفائزون والذي رزق الله من الأمير فهو عندي عظيم نفيس وكل الذي قبلي عن مكافأته فيقتصر إلا أنه ليس في النية تقصير ولا بنوع لشيء من الأمور إلا بتوفيق الله عز وجل ومعاونته والسلام.

وله في السلامة جواب أيضاً:

أما بعد فقد أتاني كتابك فيما أخبرني عنه من صلاحك وصلاح ما قبلتك وفي الذي ذكرت نعمة مجتلة عظيمة لمحمد عندها الله المنعم بها الحمد ونسأله أن ينهسنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها نحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو أطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك إحصاء للنعمة ولا اعتراف لكنه الحق فترغب إلى الذي يزيد في نعمه عنينا تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً وأن يورقنا مع كل نعمة كفاء من المعرفة بفضلها فيها والعمل في أدائها حقها.

وفي السلامة أيضاً (ولم يقل أنها له):

كتبت إليك وأمر المؤمنين وما يأتيهم من لين الطاعة واتساق الكنية عمت في الداني والقاصي من بلدانه وحواشي سخطانه على ما يحمد الله عليه فإن نعمة الله على أمير المؤمنين تجري على أذلالها وتنفاد في أسهل سبيلها.

قال المؤلف: ومن مختار ما كتب به من باب الشكر ولم أعرف إن كانت له أو لغيره لأنه أورد كتب بضم أولها ومع هذا فهذه هي الرسالة:

أما بعد فقد أعجز تعدادي عما أتعرف منك وأتعرف بك دانياً ونائباً وما أدري ما ابتدأني به من معروفك أرهن لشكري أم ما ثبيت به من برك لبذلك بعنايتك علي نأيتك أم ما ألبستني جماله علي لسانك بإطرائك وثباتك أم ما عقدته لي عند غيرك بتلطيفك وتأييدك غير أنني أعلم أنك لم تقصر في استحقاق شكر علي وأرجو ألا أكون مقصراً في معرفة ذلك منك ومن لم يقصر عنده ولم يؤت في شكره إلا من أعظم المعروف عنده مع جهده فقد دخل بالنعيم والجهد في الشاكرين. غير أن الذي أنستني به من رفدك وتوطيدك قد زادني وحشة إليك وإن حفظ من حفظني فيك وإن لم يكن مقصراً وقد جدد لي المعرفة بوثارة مكاني عندك ولقد بلغت ناصحت لي الأمور والرجال وأصحتني إلى صلاحني لنفسك فليس كتابي هذا باستبطائي لأحد حتى يستظنه ولا شكري حتى يكون البدء منك ولكن روجت عن نفسي بذكرك وزيتها بشكرك وزيتها بالإقرار بفضلك.

ولابن المقفع:

إن الناس لم يعدوا أن يطلبوا الخواص إلى الخواص من الإخوان وأن يتواصوا بالحقوق ويرغبوا إلى أهل المقامات ويتوسلوا إلى الأكفاء وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير ومن أعان عليه وبذلك لأهل ثقته المصافين وإن بذل النفوس فيه وإعطاء الرغيب ليس منك ب بكر ولا طريف بل هو تليد أتله أولكم لاخركم وأورثه أكابرهم أصاغرهم ومن حاجتي كذا وأنت أحق من طلبت إليه واستعنت علي حوادث الدهر وأنزلت به أمري لقرب نسبك وكريم حسبك ونباهتك وعنو منزلتك وحسب طبعك وعوام

أياديك عني عشيرتك وغيرها فليكن من رأيك ما حملتك من حاجتي عني قدر قسم
الله لك من قصده وما عودك من منته ووسع غيري من نعمائك وإحسانك.
ولا بن المقفع أيضاً:

أما بعد فإن من قضى الحوائج لأخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل
لا لهم. والمعروف إذا وضع عند من لا يشكوه فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو
لعقبة من بعده. وكتبت إلينا ولحالنا التي نحن بها نذكرك حاجة أول ما فيها معروف
تستوجب بد الشكر علينا وتدخر به الأيادي قبلنا.

ولعبد الله بن المقفع إلى يحيى بن زياد (الحارثي) ابتداءً في المؤاخاة:

أما بعد فإن أهل الفضل في اللب والوفاء في الود والكرم في الخلق لهم من الشاء
الحسن في الناس لسان صدق يشيد بفضلتهم ويخبر عن صحة ودهم وثقة مؤاخاتهم
فيتحير إليهم رغبة الأخوان ويصطفون لهم سلامة صدورهم ويحتجي لهم ثروة قلوبهم فلا
مثي أفضل تقريضاً ولا مخبر أصدق أحدثه منده. وقد لزمتم من الوفاء والكرم فيما
بينك وبين الناس طريقة محمودة نسبت إلى مزيتها في الفضل وجل بها ثأرك في الذكر
وشهد لك بها لسان الصدق فعرفت بمناقبها ووسمت بحاسنها فأسرع إليك الأخوان
برغبتهم مستبقين يتدرون ودك ويصلون حبلك ابتدار أهل التنافس في حظ رغب
نصبت لهم غاية يجري إليها الطالبون ويفوز بها السابقون. فمن أثبت الله عندك بموضع
الحرز والثقة وملاً بك يده من أخي وفاء وصلة واستنام منك إلى شعب مأمون وعهد
محفوظ وصار مغبوراً بفضلك عليه في الود يتعاطى من مكافأتك ما لا يستطيع
ويطلب من أثرك في ذلك غاية بلوغها شديد. فلو كنت لا تراخي من الأخوان إلا من

كافاً بكدك وبنع من الغايات حدك ما آخيت أحداً ولصرت من الأخوان صفراً ولكن
أخوانك يقرون لك بالفضل وتقبل أنت ميسورهم من الود ولا يحشهم كنف
مكافأتك ولا بلوغ فضلك فيما بينك وبينهم فإنما مثلك في ذلك ومثلهم كما قال
الأول:

ومن ينازع سعيد الخير في حسب ... يترع طليحاً ويقصر قيده الصعد
ولم أرد بهذا الثناء عليك تركيتك ليكون ذلك قرينة عندك وأخية لي لديك ولكن
تحريت فيما وصفت من ذلك الحق والصدق وتنكبت الإثم والباطل فإن القليل من
الصدق البريء من الكذب أفضل من كثير الصدق المشوب بالباطل. ولقد وصفت
من مناقبك ومحاسن أمورك وإني لأخاف الفتنة عليك حين تسع بتزكية نفسك
وذكرى ما ذكرت من فضلك لأن المدح مفسدة للقلب مبعثة للعجب. ثم رجوت لك
المنعة والعصمة لأني لم أذكر إلا حقاً والحق ينفي من اللبيب العجب وخيلاء الكبر
ويجند على الاقتصاد والتواضع. وقد رأيت إذ كنت في الفضل والوفاء على ما
وصفت منك أن آخذ نصيبي من ودك وأصل وثيقة حبي بحبك فيجري بيننا من
الإخاء أواصر الأسباب التي بها يستحكم الود ويدوم العهد وعلمت أن تركي ذلك
غبن وإضاعتي إياه جهل لأن التارك للحظ داخل في الغبن والعائد عن الرشد موجب
إلى الغي فارغب من ودي فيما رغبت فيه من دوك فإني لم أدع شيئاً أستني به منك
الرغبة وأجتر به منك المودة إلا وقد اقتدت إليك ذريعتي وأعصت لحوك مطيته لترى
حرصي على مودتك ورغبتني في مؤاخاتك والسلام.

جواب من يحيى بن زياد في صفة الإخاء:

أما بعد فإننا لما رأينا موضع الإخاء من يَحْتَسِنُه في تَأْنِيسِه من الوحشة وتقريبه لذي البعدة ومشاركته بين ذوي الأرحام في القربة لم نرضَ بمعرفة عينه دون معرفة نسبته فنسبنا الإخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى الصبر فوجدناه محتويًا على الكرم والنجدة والصدق والحياء والنجابة والزكاة ومما لا يأتي عليه العدد من الخامد ثم انحدرنا فيما أصعدنا فيه من هذا النسب فعدنا إلى الإخاء فوجدناه لا يقوم به إلا من هذه الخصال كلها أخلاقه. ولما استوجب الإخاء مسالك الخمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع في صواب التوزير وأحكام التقدير وعلمنا أن الاحتباس به أحسن من الندم بعد بذله واستوجب إذا كان جماع الخامد أن نتخير له محامد التي كان يحمل عليها فكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين فصنف عذرونا بالتحبس للتخير إذ كان التخير من شأنهم وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء وسرعة في الانتهاء فقدموا اللاتمة واستعجلوا بالمودة وتركوا باب التروية واستحسنا عاجل أخية ولجوا عن أجل الثقة فكانوا بذلك أهل لائنة ولم يجد المعذرون إلا الصبر على تلك والاستعمال الرأي والاستعداد بالعذر عند الحاجة. وقد فهت كتابك إلى بالمودة واستحاثك إياي في الأخوة وما دنوت به من حرمة أخية فنازعت إليك نفسي بمثل الذي نازعت به إلى نفسك فواثبتني عادة الاستعمال للتروية في الخبرة والتخير للنبغة فجئت عن كتابك جولة غير نافرة ثم راجعت مقاربتك فقلت ألقى إلى أسباب المودة قبل كشف الغطاء بالخبرة فخشيت أن تعذر نفسك بالتقدم وتحدث الزهادة للنعسف بالجهالة عند الخبرة فجئت عن هذا جولة كالجولة الأولى ثم عاودت إسعافك وطاعة التشوق ومعصية

التحيز ثم قلت ما حال من جعل الظن دون اليقين والتقدم قبل الوثيقة فلما كان الرأي لي خصصاً تنكبت الوقوع في خلافه فلم أجد إلا الإدبار عن إقبالك سبيلاً ولا مع ذلك في طاعة الشوق حجة

فتغييت السبيل بين ذلك إلى إعطائك طرف حبل الإخاء في غير الخروج من سبيل التخير وكرهت أن تستعبدني بالإخاء قبل أن أعرفك بحسن الملكة وأن تستظهرني عنى الأعداء قبل أن أعرفك بعدل السيرة وأن تستضيء بي في ظلم الجهل قبل أن أعرفك بعقد النب وأن تستمكن بي في المطالب قبل أن أعرفك بقصد الهمة فقدمت إليك الترحيب والعدة وأحسنيت عنك المفاوضة والثقة وتنظرت أن تشر لي فأذوق جناتك فأعرفك بالمذاقة في الطعم إما لافظاً وإما مستنبطاً فإن كان اللفظ لم أكن من الرأي في قلبه وإن كان الاستنباط ذوقتك ما تشوقت إليه مما ادعيت مني به الخبرة وأول ما أنا معتبر به منك المواظبة على استنجاح ما سألت أو السأمة له فإن كانت المواظبة فأحد الشهود المعدلين وإن كانت السأمة فأنت عن حمل ما تعطي أضعف منك عن جميل ما تطلب. طالعني بكتيك فإنك قد حذلت قبلي عقداً من التحفظ وعقدت عقداً من التقرب والسلام.

الصنائع الإسلامية

(تابع ما قبله)

إذا أطلق لفظ النقش عند المسلمين فلا ينبغي أن يفهم منه أنه يراد به تمثيل صورة ذات روح بل قد تكون تلك الصور نقوشاً يراد بها أمر آخر. ومما يعجب له أنه يوجد في هذا الكتاب الوجيز إشارة ضعيفة لصورة فارس يحسك رحمه بيده نقش على القبة